القيم الخلقية في رسائل ابن المقفع الأدبية

د. سـهام سـلامة عباس
أستاذ الأدب القديم المساعد
كلية الآداب – جامعة الإمام عبدالرحمن الفيصل
الدمام
د. سامية مسفر فالح الهاجري
أستاذ الأدب القديم المساعد
كلية الآداب – جامعة الإمام عبدالرحمن الفيصل
الدمام

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

اتسعت رقعة الدولة في عصر بني العباس، وازدهرت الحياة العقلية، وامتزجت الثقافات والحضارات العديدة التي انصهرت بالفكر العربي – آنذاك – وقامت على آثارها حضارة عظيمة أثرت الفكر الإنساني هي الحضارة العربية الإسلامية وانعكس ذلك في أدب العصر العباسي بكل مراحله، فتباين موقف الشعراء والكُتاب، وظهرت في الأدب العربي اتجاهات وسمات وخصائص نتجت عن حالة عقلية فريدة وشديدة الخصوصية.

ووقف الأديب العباسي ما بين سخرية عقلية أو اغتراب نفسي أو انغماس في اللهو ومباهج الحياة أو تطرف في الزهد والتصوف.

ولاشك في أن العصر العباسي منذ بدايته هو مرحلة مميزة في أدبنا العربي، وقد شمل هذا التطور الأدباء جميعاً سواء كانوا شعراءً أو كتاباً.

تطور النثر العباسي ؛ وتعددت موضوعاته مزاحماً الشعر في ذلك مزاحمة عنيفة.

يقول د. طه حسين: « وبعد أن كان المدح والهجاء والرثاء أموراً لا تتجاوز الشعر، طمع فيها الكُتاب فمدحوا وهجوا وعاتبوا ورثوا ووصفوا، فأكثروا من الوصف، ومن وصف أشياء لم يكن الشعر العربي يعرض لها »[1].

والنثر فن قولي يقابل الشعر، دون تناقض بينهما، ومع ذلك فهو لم يحظ باهتمام الباحثين، ومن هنا كان اهتمامنا بالنثر، والنثر العباسي بخاصة.

أما ابن المقفع فهو رأس المحدثين من الكتاب، كما كان بشار رأس المحدثين من الشعراء، يمثل مرحلة البداية بكل ما تحمله من قلق وحيرة وتردد،

(١) طه حسين – من حديث الشعر والنثر – ص٥٥-٥٦.

تتمثل في ثقافات عصره، يعلو بقلمه رافضاً تناقضات مجتمعه، حالماً بعالم مثالي، تحكمه القيم الأخلاقية وقد بدأ بنفسه، فطبق عليها ما حصله وما اطلع عليه من الأخلاق الفاضلة، فهو كريم، حسن المعشر حافظ للعهد والود.

نلمح في شخصيته صورة الناقد الاجتماعي والسياسي، مما جعلنا نتساءل: هل وظيفة الأديب تقتضي وتفرض عليه أن يكون مصلحاً اجتماعياً ؟ أو ناقداً سياسياً ؟ وهل هناك تقارب بين مفهوم الأدب ومفهوم الأخلاق ؟ ومن أين أتى ابن المقفع بهذه المفاهيم ؟ وما المصادر التي عول عليها، واستقى منها قيمه ومعارفه ؟

وقد حاولنا الإجابة عن هذه الأسئلة عبر هذه المحاولة، ومن خلال ذلك البحث الذي يتضمن مبحثين، يتناول المبحث الأول العلاقة بين مفهوم الأدب ومفهوم الأخلاق، وكذلك علاقة ابن المقفع بعصره ومدى تأثره بمتغيراته، ثم نتحدث عن مفهوم الأدب عند كاتبنا كما اتضح من رسائله الأدبية.

أما المبحث الثاني: فيتناول تنوع القيم التي يتبناها كاتبنا وانقسامها من حيث كونها فضائل أو رذائل ثم تضيفها بإرجاعها إلى العقل المطبوع أو المكتسب، وبعدها نتناول أهمية التأديب عند ابن المقفع ومنهجه ووسائله في ذلك.

ونختتم بالحديث عن خصائص أسلوب ابن المقفع وأهم ما تميز به.

وبعد ذلك تأتي الخاتمة التي تشتمل على أهم نتائج البحث.

والله نسأل التوفيق والسداد .

المبحث الأول

ابن المقفع والنزعة الإصلاحية

أولاً: ما بين الأدب والأخلاق

الأدب:

الأدب الذي يتأدب به الأديب من الناس، وسمىَّ أدباً لأنه يأدب الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقابح.

وأصل الأدب الدعاء، ومنه مأدبة، وهي كل طعام صُنع لدعوة أو عرس، والآدب الداعي إلى الطعام، ومنه: هذا ما أدب الله تعالى به نبيه صلى الله عليه وسلم.

قال ابن مسعود: إن هذا القرآن مأدبة الله في الأرض فتعلموا من مأدبته ؛ يعنى مدعاته.

وقال أبو عبيدة: تأويل الحديث أنه شبه القرآن بصنيع صنعه الله للناس، لهم فيه خير ومنافع ثم دعاهم إليه . (١)

فالأدب في معناه اللغوي يشتمل على التهذيب والدعوة إلى الخير، وتحقيق المتعة.

وقد اختلف مفهوم الأدب عند العرب على مر العصور، ففي عصر صدر الإسلام كان يقصد به التهذيب والخلق كقوله صلى الله عليه وسلم: « أدبي ربي فأحسن تأديبي ».

واشتمل التأديب على التعليم أيضاً، ومن هنا جاء لفظ المؤدبون وهم

(١) ابن منظور – لسان العرب – مادة (أدب).

المعلمون الذين كانوا يلقنون أولاد الخلفاء الشعر والخطب وأخبار العرب وأنسابهم وأيامهم في الجاهلية والإسلام.

أصبح الأدب يُعنى بالتهذيب والتعليم على السواء، ويتضمن كل المعارف غير الدينية التي ترقى بالإنسان اجتماعياً وثقافياً كما هو معروف عند إخوان الصفا.

ويرى ابن خلدون أن الأدب يتناول جميع المعارف الدينية وغير الدينية.

أما ابن قتيبة فيرى أن الأدب يحتوى على سنن السلوك التي يجب أن تراعى عند طبقة معينة من الناس.

ومع مطلع القرن التاسع عشر تحدد مفهوم الأدب بأنه كل ما ينتجه العقل والشعور، وهو الكلام الإنشائي البليغ الذي يقصد به التأثير في عواطف القراء والسامين.

أما عند الغربيين فقد تضمن مصطلح الأدب Lite Ratu Re مجموع الآثار النثرية والشعرية التي تتميز بسمو الأسلوب، وخلود الفكرة الخاصة بلغة ما أو بشعب معين، وهو يتضمن كل ما أنتجه البشر محفوظاً كان أو مطبوعاً. (١)

ومع سيطرة العلوم الطبيعية والتجريبية على أوربا نادى بعض مؤرخي الأدب بتطبيق مناهج تلك العلوم على الأدب، وحاولوا وضع قوانين تطبق على الدراسات الأدبية كقوانين الطبيعة فعنوا بدراسة شخصيات الأدباء، وتعقبوا حياتهم ومالها من أثر في إبداعاتهم، وتحول تاريخ الأدب إلى ضرب من التاريخ الطبيعي حين أقروا القوانين الثلاثة التي يخضع لها الأدب في كل أمة وهي: الجنس، والزمان، والمكان ؛ فلكل جنس خواصه، ولكل زمان أحداثه وظروفه الاقتصادية

(١) مجدي وهبة – معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب – ص١٦.

والسياسية والثقافية، ولكل مكان ميزاته الإقليمية والجغرافية.[1]

وبهذه القوانين أو المؤثرات أصبح الأدب تعبيراً عن العصر وصار الأديب مرآة له.

إلا أن هذه المحاولات لربط الأدب بالعلوم الطبيعية لم تلبث أن هدأت بتأثير نمو العلوم الإنسانية، وحلت محلها فكرة تؤكد على أن الأدب إنما يلحق بالعلوم الإنسانية، وعالم الإنسان أكثر عمقاً واتساعاً من قوانين الطبيعة.

فالحقيقة العليمة تصح واقعيتها إذا صحت فكرتها الذهنية، وإذا أثبت المنطق والتجربة المادية الملموسة صحتها، ومن ثم كانت الحقائق العلمية كليات عامة يتفق على صحتها الناس، ومعايير الحكم على مثل هذه الحقائق لا يترك مجالاً للصفات الفردية الخاصة، ومن هنا كان العلم موضوعياً وليس شخصياً أو ذاتياً، ومن هنا اختلف العلم عن الفن.

فالأثر الفني أيّاً كان نوعه ليس نتيجة تثبتها التجربة العلمية، وإنما هو نتيجة ما في الفنان من تباين وفردية، بل إن قيمة الأثر الفني لترتفع وتسمو كلما كان هذا التباين، وتلك الفردية مظهرين واضحين في الإنتاج الفني، وهذه الفردية التي تميز الفن من العلم عند النقاد وعلماء الجمال هي العنصر الأساسي الذي يجعل الفن عند خلقه يتسم بسمة الأصالة.

وإذا كان الفن يصدر عن ذات واحدة فإنه يهدف في نتيجته إلى إشراك أكبر عدد من الناس في التمتع بالأثر الفني، فهذه الذاتية هي التي تحقق الموضوعية الفنية وهي لا يمكن أن تأتي إلا إذا توغل الأديب أو الفنان في أعماق الإنسان، ذلك أن تعمق الأديب في ذاته هو تعمق في ذات الإنسان الذي يرقد في أعماقنا

(١) د. شوقي ضيف – العصر الجاهلي – ص١٢، ١٣.

جميعاً.

وليس من شك عندنا في أن كل أديب أو فنان قد ورث زاداً فكرياً ووجدانياً، واكتسب من جماعته المعاصرة إيحاءً وقوة، واستفاد من لغة آبائه والمفكرين قبله، غير أن هذه العناصر الموروثة والمكتسبة من البيئة والثقافة ليست إلا عوامل مساعدة تشعل الجذوة وتدفع بالينبوع الكامن في أعماق الفنان.(١)

يصور الأدب المجتمع، ويشكل المجتمع العمل الفني ويؤثر فيه، فالمجتمع جزء لا يتجزأ من الوجود، إلا أن الأديب هو الذي يرى الوجود من خلال ذاته، ويحاول إدراكه وتفسيره والتعبير عنه.

فالعمل الفني نتاج الروح الإنسانية وليس مجرد صورة للعالم الخارجي، إنه تجسيد لقيم إنسانية، وحقاً إن تجربة الأديب تجربة شخصية ولكنها تنبع من أعماق كيانه، لذلك فإن لها مدلولاً إنسانياً عاماً ؛ حين يستبطن الأديب ذاته، ويتأمل ما هو إنساني كلي فيها، أي تشترك فيه الإنسانية جمعاء.

وهكذا تطور مفهوم الأدب، وتعمقت وظيفته، فأصبح معيناً على فهم الحياة، والتعايش فيها.

والظاهرة الفنية حتمية في النفس الإنسانية حيث ذات الأديب تحاول أن تتعرف على ذاتها، وتعرفها للآخرين، وهي في أثناء ذلك تسعى إلى معانقة حقيقة الكون.

والفن عمل جدى مسؤول، يعثر الإنسان من خلاله على عزاء لمصيره الغامض، ويستعين به فيتغلب على الجهل والظلمة اللذين يحدقان به.

(١) د. محمد زكي العشماوي – قضايا النقد الأدبي – ص١٥ و ص١٦.

الأدب والأخلاق:

مر بنا أن مفهوم الأدب اشتمل على تحقيق المنفعة، وجلب الخير للإنسان، وهو ما تدعو إليه فلسفة الأخلاق فقد عرفت الأخلاق بأنها قيم أو منظومة قيم تعرف عليها الإنسان باعتبارها جالبة للخير وطاردة للشر، وهي لون من ألوان الوعي الإنساني، ومجموعة من القيم والمبادئ التي تحرك الأشخاص والشعوب كالعدل والحرية والمساواة.

وهي كذلك السجايا والطباع والأحوال الباطنة التي تدرك بالبصيرة والغريزة، ويمكن اعتبار الخلق الحسن من أعمال القلوب ؛ غير أن أعمال القلوب تختص بالقلب وحده بينما الخلق يكون قلبياً ويكون في الظاهر.

يقول أرسطو: « مقاصدنا الأخلاقية يظهر أن غرضها شيء من الخير نرغب في بلوغه، هذا هو ما يحمل تعريفهم للخير تاماً إذ قالوا: إنه موضوع جميع الآمال »[1].

ويقول: « أن يكون الغرض العام لجميع آمالنا هو الخير والخير الأعلى»[2].

فالأخلاق عند أرسطو هي التمهيد الضروري أو الإحساسات الطيبة لأي دراسة أو معرفة أو محاولة للفهم.

وهي وحدها مصدر السعادة الحقيقة، فالسعادة ليست متروكة للمصادفة بل هي هبة من الله نتيجة لمجهوداتنا والإنسان وحده هو الذي يمكنه أن يكون سعيداً لأنه هو وحده الجدير بالفضيلة.

(١) الأخلاق – أرسطو – ص١٦٨.

(٢) السابق – ص١٧٠.

والفضيلة هي السعادة الحقة، فالطبائع العامية الغليظة هي وحدها التي ترى السعادة في اللذة وتؤثر العيش في ضروب الاستمتاع المادي.

وقد عرف بعض الفلاسفة الإنسان بأنه حيوان أخلاقي، فهو يشارك الحيوانات في الرغبة لإشباع حاجات الجسد ويسعى إلى المأكل والمأوى والرفيق والعائلة، ولكن الإنسان ينفرد عن الحيوان بخاصية التأمل العقلي، فيمكنه أن يتجرد من شهواته، ويسيطر على أهوائه، وأن يوجه قراراته لتحقيق قيمه السامية.

والسعادة شيء مقدس منزه يستحق الاحترام ولا يمكننا إلا أن نعجب بها، ونسعى إلى تحقيقها، وطريقها الوحيد هو الأخلاق.

فالأخلاق هي نظرية المثل الأعلى، أو هي الدراسة المعيارية للخير والشر، ومصدرها ضمير الإنسان ووعيه.

وتتمثل الأخلاق عند أفلاطون في كبح شهوات الإنسان والتسامي فوق مطالب الجسد وإعلاء شأن النفس والروح لتحصيل الخير والمعرفة ومحاربة الجهل.
ويعرفها روسو بأنها الأحاسيس الطبيعية التي تجعلنا نميز بين الخير والشر ونتفادى ما يلحق الأذى بنا وبالآخرين.

أما نيتشه فيبنى عالمه الأخلاقي الخاص الذي لا يعتمد على العقل وحده وإنما يمثل الإنسان كله بنقائصه وانفعالاته قبل حكمته. (١)

والقيم الأخلاقية إنما تنطلق من الفطرة السليمة التي خلق عليها كل البشر باعتبارها معاني مشاركة في تكوين الشخصية وإقامة البناء الاجتماعي، وهي ممارسات اجتماعية توجه السلوك الإنساني، وتضفي نوعاً من التوازن والانسجام في علاقة الإنسان بذاته، وبالمحيطين به.

(١) فؤاد زكريا – نيتشه – ص٨٢.

وتنتج القيم الإنسانية من عمق مكابدات الإنسان مع الحياة ومعاناته، وهي لكونها قيماً إنسانية مشتركة بين البشر جمعاء فهي بمثابة طوق نجاة للإنسانية.

وبما أن الأدب صيغة إنسانية تبحث في طبيعة سلوك الإنسان وتسعى إلى إعادة اكتشاف العالم وتشكيله من جديد، وفق رؤى مبتكرة يبصر فيها المتلقي آفاق نفسه، ويتحد بالكون من حوله، فإن القيم ثمرة من ثمرات تفاعل الأديب مع واقعه النفسي والاجتماعي والثقافي.

والقيم الإنسانية نابعة من الفطرة ؛ ثابتة في مواجهة الفوضى والظلم والشر والفساد. (١)

فإذا كان الأدب تعبير جمالي، وكانت القيم هي التي تحفز على الخير والحق والجمال ونبذ العنف ؛ كان ذلك تداخلاً وعناقاً بين الأدب والأخلاق ولكن كل ذلك لا يدفعنا إلى أن نطالب الأديب أو الفنان بأن يتقلد منصب المصلح الاجتماعي أو الداعية الديني، أو حتى الفيلسوف، فالفنان صاحب رؤية جمالية يمكنه من خلالها الإقناع والتأثير على السواء، والحكم عليه لابد وأن يكون حكماً فنياً خالصاً.

وهو مالا يتنافى مع كون الشعر تأمل للأشياء أو ترجمة الواقع إلى المثال، فهو تعبير عن العالم الروحي وعن قيم خلقية معينة، وإن ما نعنيه هو أن الأديب لا يخدم قضية الأخلاق، فهي ليست هدفاً له، على الرغم من كونه يضمن أدبه قيما روحية وليدة التأمل في صروف الحياة وما يتخللها من خير أو شر.

وحقاً إننا لا يمكننا الفصل بين الأدب الجيد والأخلاق، فالوعي بالذات،

(١) د. عماد الدين خليل – محاولات جديدة في النقد الإسلامي – ص٩.

وتعمقها، يتطلب بكل تأكيد وجود العقل والحاسة الخلقية.

وعلم الأخلاق مثله كسائر العلوم الإنسانية التي تتداخل وربما يصعب التفريق بينها.

فالناقد يلجأ في تأمل تجربته وتعمقها إلى علم النفس أو التاريخ وربما إلى علم الاجتماع، ولكن في كل الأحوال يجب أن يكون حريصاً حتى لا يقع في الخلط، أو يفرض على النص الأدبي رؤية سابقة انتهى إليها علوم من العلوم، أو يقحم على النصوص الأدبية ما ليس فيها أو مالا يتحمله أو يطيقه النص الأصلي.

كما يجب ألا يتحول الأديب إلى طبيب نفسي أو مؤرخ أو مصلح اجتماعي أو فيلسوف، فإن الحكم على الأديب بكونه عالماً أو فيلسوفاً هو إعلان واضح وإقرار صريح بفشله ؛ حتى وإن اصطبغت كتاباته بالتعقل، أو جمح بأفكاره مبتغياً المثل الأعلى.

ثانياً: ابن المقفع وبزوغ عصر جديد

الثورة العباسية وتطور الحياة الثقافية:

ولد ابن المقفع في مطلع القرن الثاني الهجري حين ازداد الاستياء من بني أمية، واستقر في النفوس أن الأمويين نهبوا السلطان، وينبغي التخلص منهم حتى يعود العدل وتتحقق المساواة.

في بداية الأمر دعا العباسيون إلى الثورة سراً، ولم يذكروا للناس أنهم طلاب خلافة، وإنما كانوا ينادون – فقط – بإسقاط الدولة الأموية الجائرة التي أرهقتهم بظلمها وعسفها.

أذكى أبو مسلم الخرساني نيران التمرد والهياج داعياً إلى تأييد العباسيين، فانضم إليه خلق كثير ممن اضطهدهم بنو أمية، حتى استفحل خطره، وعندها نجحت الثورة العباسية في إسقاط الأمويين.

فتك العباسيون بالأمويين، وكأنما أرادوا أن يستأصلوهم من الأرض استئصالاً، ويقضوا عليهم، وأمعن قادة العباسيين وأعوانهم في التنكيل بأفراد البيت الأموي، وإعمال السيوف في الرقاب، وأخذ الناس بالشبهة دون شفقة أو رحمة.

وبذلك قامت الدولة العباسية معتمدة على القوة والعنف وأرست دعائمها من خلال البطش بالأمويين.(١)

اتسعت رقعة الدولة العباسية وامتدت من حدود الصين وأواسط الهند شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن المحيط الهندي والسودان جنوباً إلى بلاد الترك والروم شمالاً، وهي أوطان كثيرة كان يسكنها منذ القدم شعوب عديدة متباينة في الجنس والثقافة، امتزجت عناصر تلك البلدان المختلفة بالعنصر العربي، وأسرع من

(١) المسعودي – مروج الذهب – ج٣ – ص١٨٣ – ص١٩٩.

أسلم من الشعوب المفتوحة إلى تعلم لغة القرآن الكريم، حتى نرى العربية قد ملكت ألسنة الناس وقلوبهم، فأكبوا على تعلمها، فكانت هي وسيلتهم في التعبير عن عقولهم ووجداناتهم.

درسوا الشريعة الإسلامية، وجمعوا علوم العربية، ودونوا أصولها النحوية، وتفوقوا في صناعة الكتابة على نحو ما هو معروف عند ابن المقفع، وأصبح منهم الشعراء النابهون من أمثال بشار وأبي نواس.(١)

أصبحت اللغة الفصحى هي المثل الأعلى للناس في هذا العصر وخاصة الطبقة المثقفة، حيث دعمها القرآن الكريم وبسط سلطانها.

وتحولت ألوان الثقافات العامة التي كانت منتشرة في البلاد المفتوحة إلى اللغة العربية وهو أمر طبيعي لأن شعوب هذه الثقافات تحولوا عرباً.

وشهدت البيئة العباسية ضروباً من صراعات المدارس والاتجاهات الفكرية والفنية التي احتدمت مع ظهور المولدين، فاشتدت الخصومة بينهم وبين زعماء مدارس المحافظين.

وبدت الحاجة واضحة للأداء الوظيفي لفن الكلمة مع انتقال الحياة إلى مجتمع جديد، وازدادت حاجة الخلافة العباسية إلى كل فنون القول في فترة بدت من أشد فترات الجدل والصراع السياسي، فكانت الكلمة بمثابة ظاهرة سيادية تحاول السيطرة على مشاعر المسلمين، أو الرد على أصوات المعارضة التي تنغص على الخليفة العباسي حياته.

حاول العباسيون إرساء دعائم حكمهم بالكلمة بعد أن سيطروا على البلاد بالقوة، فتصاعدت لغة الجدل التي حاولوا من خلالها تعميق المعنى المقدس للخلافة، وتأكيد الهالة التي أحاطت بها الخلافة نفسها.

(١) الأصفهاني – الأغاني – ج٥ – ص١٧٦.

وانعكست تلك الظروف السياسية بكل ملامحها وقسماتها على فن النثر العباسي، كما انعكست فيه طبائع الثقافات العباسية بين عربية ووافدة ؛ وبين فروع متعددة طبقاً لمصادرها، فمنها ما أتى من المذاهب الفارسية، أو من الفلسفة اليونانية أو عن طريق علم الكلام والجدل.

وانعكس ذلك الزخم العقلي فيما سجله كتاب العصر العباسي من ألوان الرسائل الديوانية أو الإخوانية أو العهود والوصايا، وظلت الرسائل في هذا العصر على درجة كبيرة من الأهمية حيث فلسفت منطق الخلافة العباسية وعبرت عنها. (١)

ابن المقفع رأس الكُتاب المحدثين:

اندمجت ممالك عديدة تحت راية العرب، وغصت بيوت المسلمين بالجواري، ولاشك في أن هذا التوالد الجسماني قد تبعه توالد أخلاقي وعقلي، وأنتج ذلك صنفاً من الناس يوشك أن يكون متفوقاً في كل شيء، حتى خُيل إلى بعض الناس يومئذ أن النبوغ وقف على الأعاجم، وأن العبقرية مقصورة على المولدين.

شهد ابن المقفع – عن كثب – مصرع الدولة الأموية، وعاش في عصر جديد، ذلك العصر الذي اتسم بانصهار الثقافات، وصراع المتناقضات، وازدحام الرؤى، فكان من الطبيعي أن يقبل كثير من الناس على مباهج الحياة وملذاتها، وأن يجنح كثير منهم إلى حياة الجد والفكر، فينصرفوا إلى التأليف والترجمة والبحث.

وكان من الطبيعي أيضاً أن تتكون – من جراء ذلك الزخم والتباين

(١) عبدالله التطاوي – مستويات الحوار في فنون النثر العباسي – ص٤٧.

العقلي والثقافي – نهضة حضارية عظيمة، احتضنها بنو العباس وولاتهم.

وابن المقفع كغيره من الناس يدين بأخلاقه كلها إلى العصر الذي عاش فيه، ويدين بآرائه كلها لمطالعاته وثقافته فهو أديب اجتماعي، قدر له أن يدرك عصر الانتقال من الدولة الأموية العربية إلى الدولة العباسية التي قامت مستندة على أكتاف الفرس واعتمدت عليهم.

فابن المقفع هو ذلك الرجل النابه، العارف بالفارسية والعربية وهو واحد من أعمدة تلك الحركة الفكرية الناشطة التي أثرت دعائم التراث العربي بالمؤلفات الرائدة التي غدت فيما بعد في عداد اللبنات الأولى في صرح الحضارة العربية.(١)

ولد ابن المقفع بفارس بمدينة (جور) على مقربة من شيراز لأب فارسي على دين المجوس، وكان أبوه فيما يبدو عليماً بشؤون الحسبة والخزانة، وكان في عداد الذين اعتمد عليهم حكام بني أمية في إدارة شؤون ملكهم.

ويغلب الظن أن ابن المقفع نشأ برعاية أبيه في بيئته الفارسية قبل أن ينزح إلى العراق ويتخذ من مدينة البصرة مقاماً له.

وقد حمل هذا بعض النقاد والباحثين من أمثال د/ عمر الدقاق على القول بأن هذه النشأة هي التي تفسر إطلاع ابن المقفع على ثقافة قومه الفرس، وتشيعه بأفكارهم، وتأثره بمذاهبهم، وذهب بعضهم أبعد من ذلك، حيث اتهمه البعض بالشعوبية والزندقة حتى بعد اعتناقه الإسلام، وإثرائه الثقافة العربية.(٢)

والحقيقة أن كثير من العرب أنفسهم كان يتعلم الفارسية ويحسنها حتى لنراها تدور في مجالهم، وحتى نرى الأصمعي العربي القح يفهم ما يجري على ألسنتهم في الحياة اليومية، حيث كانت اللغة الفارسية لغة حضارة، فدخل منها

(١) عمر الدقاق – ملامح النثر العباسي – ص٢٣.

(٢) السابق – ص٢٥.

إلى العربية ألفاظ كثيرة خاصة ما اتصل بأسماء الأطعمة والأدوية والملابس. [1]

ابن المقفع هو ابن تلك البيئة التي انصهرت فيها الثقافات المتباينة في بوتقة واحدة، فأنتجت الحضارة العربية الإسلامية.

وحقاً إن الإنسان يتأثر بالبيئة التي نشأ فيها، ولكن أفكاره وثقافته تنمو وتتطور تبعاً لما يحيط به في مجتمعه.

ومجتمع كاتبنا في البصرة لم يفصله عن نشأته ولم يصطدم بثقافته الفارسية، وإنما كانت الثقافة التي ثقفها ابن المقفع هي الثقافة العربية الجديدة بكل ما تحمله من تنوع في مصادرها.

ولاشك في أن هذه البيئة العلمية والحياة العقلية الخصبة هي التي كونت شخصية ابن المقفع، وأنضجت قريحته، وأغنت موهبته، حيث نبه شأنه وذاع صيته في أوساط الفصحاء والبلغاء.

كان على كاتبنا في ظل تلك الدولة العباسية الجديدة أن يساير روح المرحلة فراح يتصل برجال الدولة، وانفتحت له أبواب الولاة والكبراء.

كانت شخصية كاتبنا تحمل في طياتها عوامل التميز والنجاح فقد كان فصيحاً، بليغاً، وعلماً من أعلام الترجمة، ورائداً من رواد النثر، كان معروفاً بجمال الطلعة، ودماثة الخلق، حسن المعشر، جواداً كريماً، جم التواضع، إلا أنه يعرف قدر نفسه، يؤثر التحفظ والاتزان، مهتدياً بفكره، كابحاً جماح عاطفته. [2]

وفضلاً على ذلك كان كاتبنا من عشاق الجمال ومتذوقي الفن، مرهف الحس، مقبلاً على الحياة في عصر انتشرت فيه مظاهر السرور ووسائل الطرب، كان شاباً نابهاً وسيماً، ذا مال، يقبل على مباهج الحياة، ويطرب لأصوات

(١) الأصفهاني – الأغاني – ج٥ – ص٧.

(٢) محمد كرد علي – رسائل البلغاء – الأدب الكبير – ص٨٠.

القيان.

إلا أنه كان كثير المعاودة لنفسه، دائب النظر في تهذيبها وتعليمها وتقويم اعوجاجها، يحرص على رياضة نفسه على الفضائل والخصال الحميدة، تصدر أعماله عن المبادئ الأخلاقية التي يراها خليقة به.

يعتمد على فكره وعقله، تدفعه رغبته في المثل العليا إلى فعل الخير، وتجنب الخبث، فقد اختار الفضيلة بحرية كاملة، فهو يتبع الفضيلة حباً لا طمعاً، ويتجنب الرذيلة كرها لا خوفاً من العقاب.

كاتبنا ليس مجرد رجل أخلاق، بل إنه يمكننا اعتباره مصلحاً اجتماعياً، اهتدى إلى أن صلاح الفرد إنما يكون من داخله، وأن صلاح المجتمع لا يتحقق إلا بصلاح أفراده، وهو حريص كل الحرص على أن يعطي من نفسه مثلاً يحتذى به في مجتمعه وعصره. (١)

(١) عبداللطيف حمزة – ابن المقفع – ص٦٤.

ثالثاً: مفهوم الأدب عند ابن المقفع

يستعمل ابن المقفع مصطلح « الأدب » مرادفاً لمصطلح « الأخلاق »، وذلك وفق المفهوم الذي ساد في عصره نتيجة الظروف والملابسات، وأيضاً نظراً لتنوع الثقافات، وانفتاح المجتمع وقتئذ على تيارات فكرية متعددة، وهو مالا يتعارض مع طبيعة ابن المقفع – نفسه – ومزاجه وإيثاره للحكمة والتعقل، حيث كان يميل إلى الاعتدال سواء في حياته أو في آرائه، يعلي من قيمة العقل ويمجده وغالباً ما يبدأ الحديث بقوله: « على العاقل »، فيوجه كلامه إلى العقلاء الذين يعظمون العقل ويضعونه في المقام الأول، والفقير المعوز حقاً هو من افتقد العقل، يقول ابن المقفع: « أشد الفاقة عدم العقل » فالعقل هو الثروة الحقيقية يقول: « ولا مال أفضل عندي من العقل »[1] .

يدعو ابن المقفع إلى الفضيلة وحسن الخلق ودماثة الطبع، وهو ينزع بشكل واضح إلى مثالية الفكر، وسمو الغاية ونبل المقصد، ويرى أن الترفع وسمو النفس مما يرفع شأن المرء.

ولعل هذه النزعة التي تعلي من شأن العقل – قد سرت إلى الفكر العربي نتيجة الانفتاح على الفلسفة اليونانية، ذلك الأثر الذي نجده عند العديد من كتاب العصر وشعرائه، فيبدو كاتبنا رجل فكر، وصاحب رأي، وحامل رسالة، فضلاً عن كونه أديباً وكاتباً.

أخذ كاتبنا بنصيب وافر من ثقافات الأمم في عصره، ووعى ما آل إليه، واستوعبه، حتى انصهر في ذهنه وعقله، فشكل شخصيته وفكره.

يتحدث ابن المقفع عن الأخلاق حديثاً موسعاً في كتابيه: (الأدب الصغير) و(الأدب الكبير) يقول: « وأنا واعظك في أشياء من الأخلاق

(١) ابن المقفع – الأدب الصغير والكبير – ص٢٧.

اللطيفة»[١].

فهدفه واضح ومحدد منذ الوهلة الأولى وهو الوعظ والنصح بالتزام الأخلاق الرفيعة.

وهو يأتي بالأدب معطوفاً على الخلق في قوله: « ومن تمام حسن الخلق والأدب في هذا الباب ... »[٢] فتمام حسن الخلق هو بالضرورة تمام الأدب.

والأدب العظيم لا يتحقق إلا بالعقل اللبيب النابه يقول: « كلام اللبيب وإن كان نزراً أدبٌ عظيم »[٣].

والهدف من كتابه « الأدب الصغير) هو إحياء الفكر وإقامة الحجة وتقديس العمل، وهو بذلك يسعى إلى إرساء مكارم الأخلاق حيث جاء كتابه: « إحياءٌ للتفكير وإقامة للتدبير ودليل على محامد الأمور ومكارم الأخلاق »[٤].

فالعقل الذي هو وسيلة المعرفة والإدراك – هو السبيل إلى محامد الأمور ومكارم الأخلاق، وهو ما يتفق وطبيعة مبادئ الفكر الإنساني ؛ حيث إن أصل المعرفة ليس هو الرغبة في المعرفة الخالصة أو المنطق المجرد، وإنما الأصل هو تحقيق النفع في الحياة، أما الرغبة في المعرفة الخالصة فيأتي متأخراً بعد تطور ونمو، فالأصل هو البحث عما ينفع الحياة، فنحن لم نكن نمتلك العقل لو لم يكن ضرورياً لنا.

يقول أرسطو: « مقاصدنا الأخلاقية يظهر أن غرضها شيء من الخير نرغب في بلوغه »[٥].

ويقول نيتشه: « لم يتولد عن العقل خلال الأزمان الهائلة الماضية سوى

(١) السابق – ص٦٧.

(٢) السابق – ص٩٩.

(٣) السابق – ص٢٨.

(٤) السابق – ص١٥.

(٥) أرسطو – الأخلاق – ص١٦٨.

الأخطاء، ومن هذه الأخطاء ما ثبت نفعه وقدرته على حفظ النوع، إذ استطاع من اهتدى إليه أو تلقاه بالميراث، أن يحرز في نضاله من أجل ذاته، ومن أجل ذرتيه مزيداً من النجاح »[1].

وعلى هذا فإن الأدب والعقل والأخلاق هي الوسائل المثلى التي تمكنك من أن تصبح من أهل الثقة، وأن تحقق النجاح في حياتك، يقول ابن المقفع: « إن استطعت إلى الرأي والأدب الذي بمثله تكون الثقة »[2].

كاتبنا ينظر إلى الأدب على أنه وسيلة من وسائل كسب المعرفة والفضيلة، وتعلم الأخلاق، والأخلاق بدورها وسيلة لتهذيب النفس وإصلاحها، ومن ثم إصلاح الحياة وتحقيق المنفعة منها.

ومن ذلك قوله: « العاقل ينظر فيما يؤذيه، وفيما يسره، فيعلم أن أحق ذلك بالطلب، إن كان مما يحب، وأحقه بالاتقاء إن كان مما يكره »[3].

فبالعقل وحده يستطيع الإنسان أن يحيا سعيداً يقول: « والعقل بإذن الله، هو الذي يُحرزُ الخطَّ، ويُؤنسُ الغربةَ، ويَنْفي الفاقةَ، ويُعرِف التكرةَ، ويُثمرُ المكْسبةَ، ويُطيب الثمرة، ويُكسبُ الصديقَ، ويَكفي العدوَّ »[4].

وهو هنا يتفق مع أرسطو حين يقرر أن كل معرفة يمدنا بها العقل هي طريق إلى الخير والمنفعة يقول: « كل معرفة وكل تصميم يعزمه عقلنا يقصد به بالضرورة خيراً من نوع ما »[5].

يقدس كاتبنا العقل الذي يقوده إلى الأخلاق والفضائل والتي تحقق

(١) فؤاد زكريا – نوابغ الفكر الغربي – نيتشه – ص١٥٥.

(٢) ابن المقفع – الأدب الصغير والكبير – ص٧٥.

(٣) السابق – ص١٧.

(٤) السابق – ص٢٨.

(٥) الأخلاق – أرسطو – ص٧٥.

بدورها المنفعة والفائدة، ليس فقط في الدنيا، وإنما في الدين أيضاً، فصاحب العقل هو من يربح دينه ودنياه، فهو يعتمد على العقل اعتماداً كلياً في إصلاح المعاش والمعاد ؛ الذي هو غاية الغايات.

يقول: « يا طالب الأدب، إن كنت نوع العلم تريد فاعرف الأصول والفصول » ويستطرد: « فأصل الأمر في الدين أن تعتقد الإيمان على الصواب، وتجتنب الكبائر وتؤدي الفريضة »[1].

وهنا يلتقي الجمال مع الجلال، أو تلتقي الأخلاق مع الدين، وبذلك أصبح الإنسان العاقل يحتقر الملذات الوحشية أو الحيوانية الصرفة ؛ التي لا تحف بها طائفة من المعاني الأخلاقية أو الدينية.

يقول: « لا عقل لمن أغفلَهُ عن آخرتِه ما يجد من لذة دنياه »[2].

فمتع الحياة المادية فانية، وليست ثابتة، وليس من العقل أن نبيع الآخرة الباقية، لنشتري متع الدنيا الزائلة، يقول: « وقِيلَ في أشياء ليس لها ثباتٌ ولا بقاء: ظلُّ الغمام، وخُلةُ الأشرار، وعِشقُ النساءِ، والنبأُ الكاذب والمالُ الكثير»[3].

وهكذا نرى أنه كلما اتسع ميدان العقل ؛ نشأت أنواع جديدة من اللذة والألم، مشاعر وأفكار وقيم رائعة تولدت من عناق الإحساس بالجمال مع الشعور بالجلال.

وتتحقق مستويات أعلى لرؤى الكون من خلال التطور والنمو فمن النية أو الرغبة أو النزعة تنشأ أغراض دائمة تكون موجهة نحو تحقيق فكرة، فتظهر العلاقة بين الغايات والوسائل، ويتم الجمع بين الأغراض لتعطينا في النهاية نظاماً لسلوكنا العملي، وخطة شاملة للحياة.

---

(١) ابن المقفع – الأدب الصغير والكبير – ص١٠.

(٢) السابق – ص٤٨.

(٣) السابق – ص٥٨.

إنه يضع معاييراً سامية للسلوك الإنساني، ومُثلاً أعلى لتكوين الشخصية والمجتمع يقول: « ليكن المرءُ مسؤولاً، وليكن فَصُولاً بين الحق والباطل، وليكن صدوقاً ليؤتمن على ما قال، وليكن ذا عهد ليُوفي له بعهده، وليكن شكوراً ليستوجب الزيادة، وليكن جواداً ليكن للخير أهلاً، وليكن رحيماً بالمضرورين لئلاً يُبتلى بالضر، ودوداً لئلا يكون معدناً لأخلاقِ الشيطان »[1].

يضع كاتبنا دستوراً للمعاملات داخل الأسرة، وبين الأصدقاء، وحتى في علاقة الإنسان بنفسه، يقول: « احذر خصومة الأهلِ والولدِ والصديقِ والضعيف، واحتج عليهم بالحُجج ».

« لا يوقعنك بلاء خلصت منه في آخر لعلك لا تخلص منه ».

« الوَرِعُ لا يَخْدَعُ، والأريبُ لا يُخْدَع »[2].

وهو في ذلك كله يحاول خلق نظام موحد، ذو تصورات ثابتة، يمكن أن تمثل قيماً تعين على حل لغز الحياة، والتغلب على صعوباتها والتعايش معها.

وربما جاء هذا التقنين السلوكي من خلال ضروبٍ من المشكلات يضع لها كاتبنا الحلول المناسبة يقول: « إذا تخالجتك الأمور فاشتغل بأعظمها خَطَراً، فإن لم تستبين ذلك فأرجاها دركاً، فإن اشتبه ذلك فأجْدَرُها أن لا يكون له مَرجوعٌ حتى تُوَلى فَرصتُه »[3] .

وعلى هذا فإن مفهوم الأدب عند كاتبنا هو التحلي بالأخلاق الفاضلة حين يعتقد أن الغرض العام لجميع آمالنا هو الخير الأعلى، فالخير والإحساسات الطيبة هي التي تولد الشعور بالسعادة، ووسيلته إلى ذلك عقله، وما خبره من تجارب، وما قرأه من ثقافات، وغايته الأولى هي الفضيلة، فالفضيلة هي السعادة الحقة التي لا يبلغها الإنسان إلا من خلال سعيه ومجاهدة نفسه.

(١) السابق – ص٣٩.

(٢) السابق – ص٤٣.

(٣) السابق – ص٤٢.

المبحث الثاني

رسائل ابن المقفع بين الفن والقيم الخلقية

أولاً: تنوع القيم التي تبناها

الفضائل والرذائل:

كان ابن المقفع على وعي تام بأن الأخلاق ليست مجموعة من الفضائل والقيم فحسب، بل نص على أنها مجموعة من الفضائل والرذائل، أو مجموعة من المحاسن والمساوئ.

يقول: « من الأخلاقِ السيئةِ على كل حال مغالبة الرجل على كلامهِ، والاعتراضُ فيه »[١].

وربما بدا كاتبنا في هذا التقسيم متأثراً بآراء أرسطو الذي يرى أن الفضيلة هي ما يصرف أمرنا تلقاء الآلام واللذات بحيث يكون سلوكنا أحسن ما يمكن، أما الرذيلة فهي على النقيض من ذلك.[٢]

وفي ضوء هذا التقسيم المنطقي للأخلاق، شرع الكاتب في رسم الطريق الذي ينبغي على المرء أن يسلكه وسط زحام الفضائل والرذائل حتى يصل إلى رتبة الإنسان الفاضل. يقول: « على العاقلِ أن يتفقدَ محاسن الناس ويحفظَها على نفسه، ويتعهدها بذلك مثل الذي وصفنا في إصلاح المساوئ »[٣] .

ويقول في موضع آخر: « على العاقل أن يتخذ مرآتين، فينظر من إحداهُما في مساوئ نفسه، فيتصاغر بها، ويصلح ما استطاع منها، وينظر في الأخرى في محاسن الناس، فيحليهم بها، ويأخذ ما استطاع منها »[٤] .

وليس ثمة إنسان كامل – عند كاتبنا – ولكن كلما تحلى الإنسان بقدر

(١) السابق – ص١٣١.

(٢) أرسطو – الأخلاق – ص٢٣٥.

(٣) ابن المقفع – الأدب الصغير والكبير – ص٢٠.

(٤) السابق – ص٤٣.

أكبر من الفضائل، وتخلى عن أكبر قدر من الرذائل، اقترب من درجة الكمال.

ويمزج الكاتب حديثه النظري عن الفضائل والرذائل بالحديث عن ضرورة التطبيق العملي لقواعد السلوك الأخلاقي في الحياة، فيعرض لطائفة متنوعة من الرذائل التي تعتري الإنسان، ويحدد له صفاتها، وخصائصها ؛ ليكون على معرفة بها، فيدرك كيف يمكنه أن يتخلى عنها، ويتخلص منها، ويؤكد في نفس الوقت على ضرورة التحلي بأضدادها من الفضائل.

يقول كاتبنا: « لا يتم حسن الكلام إلا بحسن العمل، كالمريض الذي علم دواء نفسه، فإذا هو لم يتداوَ به، لم يغنه علمه »(١).

ومن أهم الرذائل التي حرص كاتبنا على التخلي عنها: الكذب والغضب والجزع والحسد، يقول: « رأس الذنوب الكذبُ: هو يؤسسها، وهو يتفقدُهَا ويثبتُها »(٢).

جعل كاتبنا الكذب أساس الشرور والموبقات، ويحذر من إرسال الكذبة الصغيرة، ولو كان على سبيل الهزل فليس في الكذب صغير ولا كبير، ولا هزل ولا جد، فكله كذب يؤدي إلى ضرر بالغ. يقول: « لا تتهاون بإرسال الكذبةَ عند الوالي أو غيره في الهزل، فإنها تُرِعُ في إبطال الحق ورَد الصدق مما تأتي به »(٣).

ويخص ابن المقفع بحديثه عن الغضب الملوك والسلاطين، ويحذرهم من هذا الخلق الذميم الذي قد يدفعهم إلى الطغيان والبطش بمن يغضبون عليه من الرعية.

يقول: « اعلم أن من الناس ناساً كثيراً يبلغ من أحدهم الغضب إذا

(١) السابق – ص٥٧.

(٢) السابق – ص٤١.

(٣) السابق – ص٨٨.

غضب، أن يحمله على الكلوح والقطوب في وجه غير من أغضبه، وسوء اللفظ لمن لا ذنب له، والعقوبة لمن لم يكن يهم بمعاقبته »[1].

فكاتبنا لا يرى للملوك والسلاطين عذراً في أن يغضبوا ؛ لأن الغضب ضعف وفشل، ومن ثم يربأ يهم عن ذلك. يقول: « ليس للملك أن يغضب، لأن القُدرة من وراء حاجته، وليس له أن يكذب، لأنه لا يَقْدِر أحد على استكراهه»[2].

أما رذيلة الجذع فلم يتناولها ابن المقفع بكلام مباشر وإنما تناولها من خلال حديثه عن فضيلة الصبر ومن ذلك قوله: « ذلل نفسك بالصبر على جار السوء، وعشير السوء، وجليس السوء، فإن ذلك مما لا يكاد يخطئك »[3]. ويقول: « الصبر الممدوح أن يكون للناس غَلُوباً، وللأمور مُحتمِلاً، وفي الضراء مُتَجملاً، ولنفسه عند الرأي والحفاظ مُرتبطاً، وللحزم مؤثراً، وللهوى تاركاً »[4].

أما الحسد فقد خصه بكلام وافٍ وتحدث عنه حديثاً مباشراً، فذمه، وحذر من شره، وذكر ما ينجي منه، فقال: ليكن مما تصرف به الأذى والعذاب عن نفسك ألا تكون حسوداً.

فإن الحسد خلق لئيم، ومن لؤمه أنه: « مُوَكل بالأدنى فالأدنى من الأقارب والأكفاء والمعارف والخلطاء والإخوان، فليكن ما تعامل به الحسد أن تعلم أن خير ما تكون حين تكون مع من هو خير منك، وأن غنماً حسناً لك أن يكون عشيرك وخليطك أفضل منك في العلم، فتقتبس من علمه، وأفضل منك في القوة، فيدفع عنك بقوته وأفضل منك في المال، فتفيد من ماله، وأفضل منك في الجاه، فتصيب حاجتك بجاهه، وأفضل

(١) السابق – ص٧٢.

(٢) السابق – ص٧٥.

(٣) السابق – ص١١٠.

(٤) السابق – ص١١٠-١١١.

منك في الدين، فتزداد صلاحاً بصلاحه »[1].

ونلاحظ أن ابن المقفع قد نثر حديثه عن هذه الرذائل على مدى صفحات عديدة في الأدبين الصغير والكبير، وتوجه إلى الملوك والسلاطين مرة، وإلى العامة من الناس مرة أخرى، وخص فئة دون أخرى، وحذرها من بعض الرذائل كما رأينا في حديثه عن الغضب.

لم يكتف الكاتب بالحديث عن تلك الرذائل الأربع: الكذب – الغضب – الجزع – الحسد، بل تحدث كذلك عما يتفرع عنها من رذائل، ذم العُجب واعتبره آفة العقل، كما ذم البخل والكبر واللؤم والخداع والشره.

وكما تحدث عن الرذائل تحدث أيضاً عما يضادها من فضائل، فدعا إلى الكرم – الصدق – الصبر – الكتمان.

وباختصار لم يترك رذيلة إلا وحث على التخلي عنها، ولم يترك فضيلة إلا وأمر بالتحلي بها.

ويبدو تأثير الفلسفة اليونانية واضحاً جلياً في تقسيمه الأخلاق إلى فضائل ورذائل، حيث يصدر عن نظرية الوسط الأرسطية، وتعريفها للفضيلة على أنها وسط بين رذيلتين، أو وسط بين إفراط وتفريط.

يقول أرسطو: « هذا هو الوسط، وهذا هو الكمال الذي لا يوجد إلا في الفضيلة »[2].

ويقول: « قد بان حينئذ أن الفضيلة الأخلاقية هي وسط »[3].

ويقول ابن المقفع محذراً السلطان من الإفراط في الغضب والتسرع، موضحاً عواقب تجاوز الحد في أي أمر من الأمور: « أعلم أنك إن جاوزت الغاية

(١) السابق – ص١١٢.

(٢) أرسطو – الأخلاق – ص٢٤٧.

(٣) السابق – ص٢٦١.

في العبادة صرت إلى التقصير، وإن جاوزتها في حمل العلم لحقت بالجهال، وإن جاوزتها في تكلف رضى الناس والخفة معهم في حاجاتهم كنت المحشودَ المصنِع.

واعلم أن بعض العطية لؤم، وبعض السلاطَةِ غيم، وبعض البيان عي، وبعض العلم جهل »[1].

فهو يرى أن الفضيلة تصلح نتائجها إذا أقيمت على حدودها، وتمام المنفعة بها إصابة مواضعها، فالإفراط في الجود يوجب التبذير، والإفراط في التواضع يوجب المذلة، والإفراط في الكبر يدعو إلى مقت الخاصة.

والأمثلة على ذلك كثيرة.

بين الطبع والاكتساب:

يلاحظ الدارس لابن المقفع أنه في دراسته للآداب والأخلاق يصدر عن أسس نظرية وقواعد منهجية، تسللت إلى عقله عبر روافد ثقافية متنوعة، فهو يؤمن بنظرية الطبائع التي تقول بأن ثمة عقل مطبوع وآخر مكتسب، وأن العقل المطبوع عزيزة كامنة في الإنسان، أما المكتسب فهو الأدب الذي يحصل عليه الإنسان بالتعليم، وبهذين العقلين تتم معرفة الفضيلة وتعلمها.

« فالفضيلة ليست فينا يفعل الطبع وحده، وليست فينا كذلك ضد إرادة الطبع »[2].

ونحن لا نكتسب الفضائل إلا بعد « أن نكون قد مارسناها فعلاً »[3].

(١) ابن المقفع – الأدب الصغير والكبير – ص١٢١.

(٢) أرسطو – الأخلاق – ص٢٢٦.

(٣) السابق – ص٢٢٧.

يؤكد ابن المقفع على حاجة العمل المطبوع إلى الأدب، يقول: « العقل الذاتي غير الصنيع، كالأرض الطيبة غير الحراب »[1].

ويرى الكاتب أن العقل المطبوع كالحبة المدفونة في الأرض لا تقدر على أن تتخلص من يُبسها، وتظهر بقوتها وتطلع فوق الأرض إلا بمعونة الماء الذي يغور إليها في مستودعها فيذهب عنها اليبس، وتتحقق لها الحياة، وتظهر فوق الأرض.

كذلك العقل المطبوع يحتاج إلى الأدب الذي هو ثمارها وحياتها حتى تتحقق المنفعة به.

فحاجة العقل المطبوع إلى الأدب تشبه منطقياً حاجة الحبة المدفونة في التراب إلى الماء، ومن ثم وجب على العقل كي ينمو ويصبح عقلاً صحيحاً أن يسعى في طلب الأدب ولا طريق إلى ذلك إلا بالتعليم، كما يقول كاتبنا: جل الأدب بالمنطق وجل المنطق بالتعلم.

يواصل الكاتب حديثه عن الطبائع ويرى أنها مهما تنوعت واختلفت فإنها ترجع إلى أصل واحد، وتجمعها غريزة واحدة كبرى يشترط فيها الناس جميعاً ويستوي فيها الحمقى والعقلاء.

يقول: « فعلى العاقل أن يعلم أن الناس مشتركون مستوون في الحب لما يُوَافق، والبُغَض لما يؤذى »[2].

هذه الغريزة التي نطلق عليها اليوم بمفهوم العلم الحديث غريزة البقاء أو حب الذات، والتي تهدف إلى حفظ النوع وبقاء الحياة وهي جماع الطبائع أو الغرائز الإنسانية، فهي تجمع أكبر عاطفتين في الإنسان هما: عاطفة الحب، وعاطفة البغض، فالحب هو حب الخير أو كل ما يوافق النفس البشرية، ويجلب لها

(١) ابن المقفع – الأدب الصغير والكبير – ص٣٦.

(٢) السابق – ص١٦، ص١٧.

السعادة والبغض هو كل ما يؤذى النفس، ويجلب لها التعاسة، وعنهما تتفرع سائر الطبائع أو سائر العواطف.

فغريزة حب البقاء هي حجر الزاوية.

والطبائع كما يرى كاتبنا في تقلب مستمر، ولا تثبت على حالة واحدة، فهي تزيد وتنقص، ويمكن أن تتحول من النقيض، أما الاكتساب الذي يأتي بالأدب فيتحول إلى عادة، والعادة تصير طبعاً.

ثانياً: التأديب (أهميته – منهجه – وسائله)

أهمية التأديب:

لما كانت النفس البشرية مفطورة على هذه الطباع المتضادة في المحبة والبغضاء، فإنها تنزع دائماً نحو تحصيل قدر أكبر من المنافع، كما تسعى جاهدة لدفع كل ما يصادفها أو يقع بها من مضار وشرور.

ولما كانت قدرات الإنسان قليلة وطاقته محدودة، حيث وضعنا في الدنيا موضع فاقة وكد، لا موضع غنى وخفض، أدى ذلك إلى التنافس الشديد والحرب والاقتتال بين الناس ومن ثم أصبحت هذه الطبائع الناتجة عن غريزة (حب البقاء) في حاجة شديدة إلى التأديب، أشد من حاجة الجسد إلى الطعام والشراب، فحاجة العقل إلى التأديب لا تقل أهمية عن حاجة الجسد إلى الطعام أو الشراب بل تزيد، فالسعي في طلب الأدب والعلم يلتمس به صلاح الدين والدنيا، والتأديب أمر ضروري لإصلاح الطبائع الإنسانية مما يعتريها من الفساد الأخلاقي.

يقول: « على العاقل مخاصمة نفسه، ومحاسبتها، والقضاء عليها، والإثابة، والتنكيل بها »[1].

فمن الواجب على الإنسان أن يحول الحرب والاقتتال على المنفعة بينه وبين الآخرين والناتج عن غريزة (حب البقاء) إلى جهاد وحرب واقتتال مع نفسه من أجل تهذيبها وتقويمها، فالطبائع التي جبلت منذ نشأتها على حب الشهوات لا حد لها ولا غاية، ويأتي التأديب لها مكملاً لعملية الخلق، وأمراً إلاهياً، فلو ترك الله الناس يسعون إلى كل ما تتعلق به قلوبهم وتشتهيه حواسهم، وصاروا إلى طاعة الهوى، وذهب التعاطف والبر فيما بينهم، كان ذلك سبباً للفساد وانقطاع التناسل، وفناء الدنيا وأهلها، لأن طبع النفس لا يستقيم إلا

(١) السابق – ص١٨.

بالتأديب.

يقول: « على العاقل أن يحصي على نفسه مساويها في الدين وفي الأخلاق، وفي الآداب، فيجمع ذلك كله في صدره أو في كتاب، ثم يكثر عرضه على نفسه، ويكلفها إصلاحه »[1].

والتأديب لا يمنع الإنسان من أن يستمتع بحياته، ويسعد بها، بل يمكنه أن يحقق رغباته وتطلعاته أيضاً، ولكن من خلال منهج ودستور عام يضمن المنفعة للجميع، ويحقق صلاح المعاش والمعاد.

يقول: « على العاقل أن لا يكون راغباً إلا في إحدى ثلاث: « تزود لمعاد، أو مرمة لمعاش، أو لذة في غير محرم »[2].

فالعاقل يحرص على ثلاث ساعات: ساعة يرفع فيها حاجته إلى ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفضي فيها إلى إخوانه وثقاته الذين يَصْدُقونه، وينصحونه في أمره وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذاتها مما يحل لأن هذه الساعات هي عون الإنسان على الساعات الأُخر فاستجمام القلوب يزيدها قوة.

منهج التأديب ووسائله:

أقر ابن المقفع منهجاً في التأديب يعتمد على الرواية والنقل ويقوم على عدة وسائل أهمها: العلم والمعرفة، ورياضة النفس، وحملها على ممارسة الفضيلة، – أو ما يسمى حديثاً بالأخلاق العملية –، والأمر والنهي، والقدوة الحسنة.

وكان من الطبيعي أن يتجه كاتبنا بالوسيلة الأولى وهي العلم والمعرفة إلى العقل، ولعله يقصد بالعقل هنا النفس العاقلة أو الناطقة عند أفلاطون، ويجعل العقل أو هذه النفس غاية ووسيلة في آن واحد، فالعقل هو الوسيلة إلى كسب

(١) السابق – ص٢٠.

(٢) السابق – ص٢٢.

العلم والمعرفة، وهو الغاية من عملية التأديب والتهذيب فإذا صح الأدب كان وسيلة لإصلاح الدين، والدين هو: « أفضل المواهب التي وصلت من الله إلى خلقه، وأعظمها منفعة، وأحمدُها في كل حكمة »[1].

وإحياء العقل لا يتم إلا إذا اتصف العاقل بخصال ست، وهي إيثار المحبة، والمغالبة في الطلب، والتثبت في الاختيار، والاعتياد للخير، وحسن الرعي، والتعهد لما اختير واعتقد ووضع ذلك كله موضعه عملاً وقولاً.

فهذه الخصال العقلية تنضج كلها بطلب العلم والأدب الذي هو غذاء العقل الغريزي حتى ينمو ؛ فيصبح عقلاً مكتسباً قادراً على تطبيق هذا العلم وهذا الأدب في الحياة وتحويله إلى سلوك اجتماعي.

وتنتهي هذه الوسيلة ببلوغ العقل درجة العلم والمعرفة، لتبدأ الوسيلة الثانية وهي مرحلة التطبيق العملي أو رياضة النفس وحملها على ممارسة الفضيلة ؛ فالعاقل هو من يحاسب نفسه بما لها فإنه لا مال لها إلا أيامها المعدودة التي ما ذهب منها لم يستخلف كما تستخلف النفقة، وما جعل منها في الباطل ؛ لم يرجع إلى الحق، فلتنتبه النفس إلى هذه المحاسبة عند الحول إذا حال، والشهر إذا انقضى، واليوم إذا ولى، فتنظر فيما أفنت من ذلك وما كسبت، وما اكتسب عليها من أمر الدين والدنيا.

يجمع العاقل كل ذلك في كتاب فيه إحصاء وجد وتذكير للأمور، وتبكيت للنفس، وتذليل لها، حتى تعترف وتذعن.

أما الخصومة فإن من طباع النفس الآمرة بالسوء أن تدعي المعاذير فيما مضى، والأمانة فيما بقى، فيرد عليها معاذيرها، وعللها، وشبهاتها.

وأما القضاء فإنه يحكم فيما أرادت من ذلك على السيئة بأنها فاضحة مردية، وعلى الحسنة بأنها زائنة مربحة.

---

(١) السابق – ص٣٣.

وأما الإثابة والتنكيل فإنه يسر نفسه بتذكر السيئات، والتبشيع بها والاقشعرار منها والحزن لها، فإن أفضل العقلاء هو من يأخذ نفسه بهذه الخصال.

وحمل النفس على ممارسة الفضيلة ومحاسبتها، ومقاضاتها يعرف في الفلسفة الحديثة بتأنيب الضمير وتبكيته، وهو تعبير عن عدم رضا الضمير، وذلك أن عدم رضا الضمير يترجم عن نفسه بثلاث أحوال:

- الشعور بالعار، وينجم عن جبن الإنسان أمام الواجبات، وما يستتبع ذلك من خجل المرء من نفسه.
- التأنيب وهو لوم الإنسان لنفسه لانتهاكه لقاعدة أخلاقية أقر بها.
- الندم والتوبة، وهو قبول العقاب على الذنب الذي ارتكبه الإنسان، والتصميم على تجنب فعله في المستقبل.

لكن الفلسفة الحديثة تحذر في الوقت نفسه من خطورة الشعور برضا الضمير، فقد يكون مصدراً سلبياً خالصاً، مما يحمل صاحبه على تفضيل نفسه على أولئك الذين غامروا وفعلوا فوقعوا في الخطأ، أو تألموا، أو خسروا، ومثل هذا الشعور خداع مضلل، والرضا الذي ينتج عنه هو رضا زائف.

ومحاسبة المرء نفسه —كما يقول ابن المقفع — بنفسه أمر متعذر، وإذا أمكن حدوثه من فرد، فلا يمكن حدوثه من جميع الأفراد، وبدرجة واحدة.

أما الوسيلة الثالثة وهي التأديب بالأمر والنهي فيتجه بها ابن المقفع إلى جمهور العقلاء بصفة خاصة، وتعتمد عنده على طريقة الوعظ، وتلقين المتأدب ؛ فعلى العاقل أن يعي كذا وكذا، وعلى العاقل أن يتجنب كذا وكذا وهو يقف بهذه الوسيلة عند مجرد الأمر أو النهي، ولا يتجاوز ذلك إلى الترغيب أو الترهيب، أو الثواب والعقاب.

وإن كان ابن المقفع قد تحدث عن مبدأ الثواب والعقاب فيما عبر عنه بالإثابة والتنكيل كما مر بنا في محاسبة النفس إلا أنه ترك ذلك الأمر إلى الشخص

المتأدب نفسه، كما لم يتعد العقاب عنده حد اللوم وتأنيب الضمير، وكذلك الثواب جعله حالة من السرور ورضا الشخص عن نفسه إذا كانت محسنة، وقد حذرنا من هذا الشعور كما يرى فلاسفة الأخلاق المحدثون.

وأما التأديب بالقدوة الحسنة فلم يعول عليه ابن المقفع كثيراً إذ قصرها على أئمة الدين وحدهم، ولم ندر علة ذلك القصر، على الرغم من إيمانه بأهمية هذه الوسيلة في تعليم الفضيلة.

يقول: « ومن نصَّبَ نفسه للناس إماماً في الدين، فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها في السِّيرة والطُّعمة والرأى واللفظ والأخدان، فيكون تعليمه بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه »[1].

أما الفلسفة الحديثة فلا تحبذ تعليم الفضيلة من خلال القدوة، وتراها لا يمكن أن تؤسس – وحدها – أي قاعدة للفضيلة لأن الفضيلة قائمة في جوهر التشريع الذاتي، والاستقلال الذاتي للعقل العملي عند كل إنسان، وهي بذلك تتضمن أن القانون هو الذي يجب أن يكون النموذج.

وهذا التصور موجود عند أرسطو حين قال: « ذهب بعضهم إلى إثبات أن العادل والخير يوجدان فقط بمقتضى القانون »[2].

هذه هي أهم الوسائل التي تضمنها منهج ابن المقفع في دراسة الآداب وتهذيب الأخلاق، وكلها مرويات ومأثورات من كلام الحكماء والفلاسفة السابقين دون تدخل منه بنقد أو تعليل أو استنباط، وهذا ما أعلنه هو بنفسه في مقدمة الأدب الكبير إذ يقول: « وقد بقيت أشياء من لطائف الأمور، فيها مواضع لصغار الفِطَن، مشتقة من جِسام حِكَم الأولين وقولهم، فمن ذلك بعض

(١) السابق – ص٢٤.

(٢) أرسطو – الأخلاق – ص١٧٣.

ما أنا كاتب في كتابي هذا من أبواب الأدب التي يحتاج إليها الناس »[1].

وقوله أيضاً في مستهل الأدب الصغير: « وقد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً فيها عون على عمارة القلوب وصقالها وتجلية أبصارها، وإحياء للتفكير، وإقامة للتدبير ودليل على محامد الأمور ومكارم الأخلاق إن شاء الله »[2].

فمنهج ابن المقفع يقوم على الرواية والنقل ولا فضل له فيه إلا صياغة ما جمع وما حفظ من المرويات، وضم بعضها إلى بعض، وهو يرى أن منهجه هذا هو المنهج الأمثل، إذ لا اختراع ولا إبداع في هذا الشأن، وإنما تقليد وإحياء واحتذاء وإعادة صياغة وتشكيل.

فإذا ظن أحد من الناس أنه أحسن وأبلغ، فليعلم أنه ليس رائداً على أن يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتًا ومرجانًا فظنه قلائد وأكاليل، ووضع كل فص موضعه، فسمي بذلك صانعاً، فمن جرى على لسانه كلام يستحسنه أو يستحسن منه، فلا يعتقد أنه المخترع أو المبدع، وإنما هو توفيق في الأخذ عن الحكماء، وهذا في ذاته بلوغ للغاية.

ويؤخذ على ابن المقفع – في دراسته للآداب – إجلاله الشديد للمتقدمين، وتقديسه العظيم لآثار السابقين، فنسب إليهم كل الفضل، وألزم المعاصرين تقليدهم، وأنكر قدرتهم على الخلق والتجديد والابتكار، كما بلغ به هذا الإجلال والتقديس حد الانبهار مما جعله يسرد كلامهم وينقل مأثوراتهم، ويضعها جنباً إلى جنب دون ربط أو تأليف منطقي، مما أوقعه – أحياناً – في التناقض والاضطراب ومن ذلك قوله: « من أراد أن يبصر شيئاً من علم الآخرة، فالعلم الذي يعرفه به ذلك، ومن أراد أن يبصر شيئاً من أمر الدنيا فبالأشياء التي

(١) ابن المقفع – الأدب الصغير والكبير – ص٦٥.

(٢) السابق – ص١٥.

هي تدل عليه »[1].

فهذه الرواية جاءت مقطوعة عما قبلها، مفصولة عما بعدها وذلك شأن كثير من نصوص الأدب الصغير ومروياته، إذ جاءت دون سند، فلا ندري أهي من تأليفه وكلامه، أم من ترجمته ونقله ؟

إن الرواية السابقة تفصل فصلاً حاداً بين الدين والدنيا، وهو مالا يتفق مع ما يسعى إليه الكاتب من خلال دراسته للآداب، وغايته في إصلاح المعاش والمعاد.

ويبدو ابن المقفع في الأدبين الصغير والكبير متأثراً بكتاب (كليلة ودمنة)، ويؤخذ عليه في هذا الشأن أنه ينقل منه نقلاً كاملاً.

وعلى الرغم من أن ابن المقفع قد ذكر أن العقل يكون مطبوعاً ومصنوعاً، إلا أن صورة العقل المطبوع – عنده – تبدو غامضة إزاء صورة العقل المصنوع أو المكتسب، وربما رجع ذلك إلى اعتماده على النقل والتقليد، دون أن يمارس على مروياته أي نوع من النقد أو التعليل.

ويؤمن الكاتب بالعقل المكتسب إيماناً قوياً ويسميه العقل الصحيح، فيثق في قدرته على تهذيب الأخلاق وإصلاح المعاش والمعاد، ولذلك وصفه يوهان فك بأنه: ينفل حكمة الشرق العملية الخلفية المستخلصة من تجارب الحياة، والتي لا تعترف بمبادئ مرسومة للعادات والتقاليد، ولا يخدعها الوهم والخيال عن حقائق الناس »[2].+

(١) السابق – ص٣٨.

(٢) يوهان فك – العربية – دراسات في اللغة واللهجات والأساليب – ص٦٤.

ثالثاً: الشكل والأسلوب

صاغ ابن المقفع مضمونه الأخلاقي في شكل رسائل أدبية، ويمتاز هذا الشكل بشيء من الصنعة الفنية المحكمة التي تحدث في الكلام نوعاً من الموسيقى والإيقاع يلذ له السمع، وتطرب له النفس، مما يؤثر في المتلقي ويحرك عواطفه نحو ما يعرض عليه من قضايا وموضوعات فكرية.

أما عاطفة الكاتب – نفسه – فيجب أن تتوارى خلف الموضوع الذي يتحدث عنه، فلا تظهر إلا في الرسائل الإخوانية فحسب، أما الرسائل الأدبية فيغلب عليها العنصر العقلي وتميل إلى التجريد، والنظر إلى الموضوع نظرة عامة، وتتخذ من الحوار والجدل والوعظ المباشر وسيلة للإقناع، بينما تترك للصياغة الفنية – بما فيها من رشاقة اللفظ، وازدواج التراكيب وتوازنها، وإيقاع الحروف وتماثلها – مهمة التأثير في نفس المتلقي وتحريك مشاعره ليتحقق الإقناع والإمتاع في آن واحد.

فكاتبنا من طلائع الكُتاب في الأدب العباسي وكان ينزع في تفكيره أبداً إلى المثل الأعلى، فيظهر ذلك في كتاباته، فهو حين يتحدث عن السلطان ؛ يكتب عنه كما يجب أن يكون عليه السلطان الكامل في حكمه وسياسته وأخلاقه، فهو إذن يصف المثل الأعلى للسلطان.

وإذا كتب عن الصديق فإنما يكتب أيضاً عن المثل الأعلى الذي ينبغي أن يكون عليه الصديق.

وهذا العقل الذي يتجه أبداً إلى المثل الأعلى هو الذي كان يصدر عنه ابن المقفع في كل ما يكتب.

كان كاتبنا يرمي في رسائله الأدبية إلى غاية خلقية قصد بها إصلاح النفوس وتقويمها وتزويدها بكثير من الحكم والمواعظ فغايته التهذيب، والتأكيد

على حاجة العقل إلى الأدب وضرورة التعلم والتزود من معارف السابقين، ومنهجه إيراد الحكم ومأثور القول، حتى تبدو رسائله كأنها خواطر وآراء تدور حول الإنسان ومسلكه في الحياة.

وهو أيضاً يسدي النصح إلى من يتولى أمر الناس، فالحكم كما يراه ابن المقفع خدعة وليس منفعة ولا غنماً.

يطالب كاتبنا بوجود الحاكم الصالح ويتوخى فيه جملة من المؤهلات التي يلزم توفرها فيه إذا أراد النجاح، وقد شغله موضوع السلطان في حياته وفي أدبه على السواء.

وربما كان ابن المقفع في تطلعه إلى الحاكم الأمثل إنما يضع نصب عينيه جمهورية أفلاطون.

أجمع كثيرون على أن كاتبنا كان إماماً في البلاغة غير مدافع حتى ضربوا الأمثال ببلاغته قال أبو تمام:

فكأن قيساً في عكاظ يخطب وكأن ليلى الأخيلية تندب

وكثير عزة يوم بَيْن ينسب وابن المقفع في اليتيمة يسهب[1] .

ويعده ابن النديم أحد البلغاء العشرة الذين قاموا على رأس أدباء العصر العباسي وكُتابه[2].

ويقول عنه الجاحظ: « لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد قط »[3].

(١) أبو تمام – ديوان – ص٣٩، ٤٠..

(٢) ابن النديم – الفهرست – ص١٨٢.

(٣) الجاحظ – البيان والتبيين – ص١١٥.

بلغت رسائل ابن المقفع نجاحاً عظيماً من حيث أسلوبها الشائق البديع، حتى عد من البلغاء اللامعين في العالم العربي، لم يكتب باللغة العربية القديمة، يكتفى بالتعبيرات العامة، ويؤثر الخصائص البارزة بعبارات مقاربة، يعبر استعماله اللغوي في دائرة تركيب الألفاظ وصياغتها عن طموحه الدائم إلى التبسيط الموائم للغرض، وكذلك فإن تركيبه النحوي واضحاً شفافاً، وهو يتجنب عبارات التعجب، ويتفادى تصنيف الكلام، وما شابه ذلك مما يستفيض في لغة البدو.

وهذا التطور في الأسلوب الذي نستطيع ملاحظته عند ابن المقفع آذن بشروع عهد جديد في تاريخ اللغة العربية، دعا إليه الانتقال من حياة البدو إلى حضارة المدن، وتغلغل غير العرب في ميادين الأدب، مما أنتج لغة سهلة ومتدفقة وواضحة سرعان ما احتذاها المثقفون واستعملوها في الأدب في العالم العربي(١).

وبعيداً من التشيع لهذا الرأي أو ذاك، نضع أسلوب ابن المقفع في إطار عصره، ونحاول أن نتبين ملامحه الفنية من خلال الموازنة بينه وبين الأساليب السائدة – آنذاك – وهل سار على منوالها أم كان له أسلوبه الجديد المبتكر ؟

سبق ابن المقفع الجاحظ بقرن كامل، وعاصر عبدالحميد الكاتب وكان صديقاً له، ولكنه لم يتأثر بأسلوبه، ولم يسر على طريقته في الكتابة، على الرغم من شيوع هذه الطريقة وانتشارها بين أوساط الكتاب.

لم يستطع كاتبنا أن يجاري هذا البيان العربي الأصيل، وبخاصة في جزالة ألفاظه وقوة تراكيبه، وكان الأسلوب المولد بألفاظه السهلة، وتراكيبه البسيطة قد بدأ ينتشر في أوساط الشعراء وأخذ طريقة مع حركة المد الفارسية إبان قيام الدولة العباسية، فكان ابن المقفع من أوائل الكتاب الذين أدخلوا الأسلوب المولد إلى ميدان النثر الفني وساعده على ذلك أمران: أولهما: إلمامه بالثقافات المتعددة في عصره، وثانيهما: عمله بالترجمة، إذ كان في كتاباته مترجماً أكثر منه مؤلفاً، والمترجم يسير إلى السهولة والوضوح، ليكون قريباً إلى جمهور القراء.

(١) يوهان فك – العربية – دراسات في اللغة واللهجات والأساليب – ص٦٤، ٦٥.

يتسم أسلوب كاتبنا بدقة الألفاظ، وترتيب الأفكار وتفصيل المعاني بعد إجمالها، وهو لاشك أثر من آثار ثقافته الفلسفية والمنطقية التي تسللت إليه من خلال ترجمته لكتاب أرسطو ومن ذلك قوله: « فإنما إحياء العقل الذي يتم به ويستحكمُ خصال سبع: الإيثار بالمحبة، والمبالغة في الطلب، والتثبت في الاختيار، والاعتبار للخير، وحسن الرعي، والتعهد لما اختير واعتقد »(١).

ثم يأخذ في تفصيل كل صفة من الصفات على حدة.

ويلجأ كاتبنا – أحياناً – إلى القوالب والصيغ الأسلوبية الجاهزة ويصب فيها أفكاره، ليوفر لأسلوبه شيئاً من الإيقاع والنغم الصوتي ومن ذلك قوله: « أحق الناس بالسلطان أهل المعرفة، وأحقهم بالتدبير العلماء، وأحقهم بالفضل أعودهم على الناس بفضله، وأحقهم بالعلم أحسنهم تأديباً.(٢)

فالتنوع عنده لا يكون في الصياغة، وإنما التنوع والتعدد يكون في المعاني، أما الألفاظ فثابتة وقوالبها مكررة.

وربما لجأ كاتبنا إلى الخيال فيزيد أسلوبه إقناعاً وإمتاعاً. ومن ذلك قوله: « فكما أن الحبة مدفونة في الأرض لا تقدر أن تخلع يُبْسها وإظهار قوتها وتطلع فوق الأرض بزهرتها وريعها ونضرتها ونمائها إلا من بمعونة الماء الذي يغور إليها في مستودعها، فيذهب عنها اليُبس والموت، فكذلك سليقة العقل مكنونة في مغرزها من القلب لا قوة لها ولا حياة بها ولا منفعة عندها حتى يعلمها الأدب الذي هو ثمارها وحياته ولقاحها »(٣).

ويمكننا أن نجمل خصائص أسلوب ابن المقفع في الميل إلى الإيجاز في القول، واستخدام الأسلوب المنطقي، ألفاظه مساوية لمعانيه، يقسم موضوعاته إلى

(١) ابن المقفع – الأدب الصغير والكبير – ص١٤.

(٢) السابق – ص٣٣.

(٣) السابق – ص١٢.

فقرات، ويقسم الفقرات إلى جمل ذات فواصل بحيث يمكننا الوقوف فيها عند كل فاصلة.

ومن خصائص أسلوبه أيضاً المبالغة في إيراد الحكم والأمثال وتقديس كلام السابقين، والقصد في استخدام البديع.

وربما وقع في بعض الإيهام أو الغموض الذي يظهر – أحياناً – في كتاباته، والذي قد يكون سببه الترجمة والنقل من لغة إلى أخرى.

وقد يؤخذ عليه الوقوع في بعض الأخطاء اللغوية أو الأسلوبية والتي تظهر عنده في تقديم حكمة وتأخير أخرى، أو حذف ثالثة وهكذا، أو أن يأتي بجملة اعتراضية مكان جملة أساسية، أو جملة أساسية مكان جملة اعتراضية وقد يقع في مخالفة إرجاع الضمير حيناً أو إغفال عن ذكره أحياناً، وهو ما قد يوقع القارئ في الحيرة والاضطراب.

إلا أن مكانة ابن المقفع قد تحددت في الأدب العربي، حيث حمل إلى العرب والعربية أروع ما أنتجته العبقرية الفارسية قبل الإسلام، مما كان له أثر كبير في الآداب العباسية.

الخاتمة

ويمكننا أن نلخص أهم النتائج التي انتهى إليها البحث في النقاط الآتية:

- اشتمل مفهوم الأدب – في وقت سابق – على تحقيق المنفعة وجلب الخير للإنسان وهو ماتدعو إليه فلسفة الأخلاق.
- تطور مفهوم الأدب وتعمقت وظيفته – على مر العصور – فأصبح معيناً على فهم الحياة والتعايش معها.
- إذا كان الأدب تعبير جمالي، وكانت القيم هي التي تحفز على الخير والحق والجمال كان ذلك تداخلاً وعناقاً بين الأدب والأخلاق.
- يجب ألا يتحول الأديب إلى مصلح اجتماعي أو فيلسوف حتى وإن اصطبغت كتاباته بالتعقل أو جمح بأفكاره مبتغياً المثل الأعلى.
- اتصف العصر العباسي بالزخم العقلي الذي أثرى فن الرسائل العباسية.
- البيئة العلمية والحياة العقلية الخصبة في العصر العباسي هي التي كونت شخصية ابن المقفع وأنضجت قريحته، غير أن شخصية كاتبنا كانت تحمل في طياتها عوامل التميز والنجاح.
- اعتمد كاتبنا على فكره وعقله مدفوعاً برغبة عارمة في تحقيق المثل الأعلى.
- يستخدم ابن المقفع مصطلح « الأدب » مرادفاً لمصطلح « الأخلاق ».
- الأدب في مفهوم كاتبنا هو وسيلة إلى المعرفة والفضيلة وتعلم الأخلاق، والأخلاق وسيلة لإصلاح النفس ومن ثم إصلاح الحياة وتحقيق المنفعة فيها.
- يقدس كاتبنا العقل الذي يقوده إلى الأخلاق والفضائل، التي تحقق إصلاح المعاش والمعاد، الذي هو غاية الغايات.

- وضع ابن المقفع من خلال دراسته للآداب نظاماً سلوكياً موحداً، وخطة شاملة للحياة.
- حاول كاتبنا وضع نظاماً موحداً، ذو تصورات ثابتة، تعين على حل لغز الحياة.
- يتحدد مفهوم الأدب عند كاتبنا في كونه التحلي بالأخلاق الفاضلة لتحقيق المنفعة والخير الأعلى حيث الفضيلة هي السعادة الحقة التي لا يبلغها الإنسان إلا من خلال سعيه ومجاهدة نفسه.
- كان ابن المقفع على وعي تام بأن الأخلاق ليست مجموعة من الفضائل فحسب بل أنها مجموعة من الفضائل والرذائل.
- يؤمن كاتبنا بنظرية الطبائع التي تقول بأن ثمة عقل مطبوع وآخر مكتسب، وأن العقل المطبوع هو غريزة كامنة في الإنسان، أما المكتسب فهو الأدب الذي يحصل عليه الإنسان بالتعليم، وبهذين العقلين تتم معرفة الفضيلة.
- يؤكد الكاتب على ضرورة التأديب للنفس وأهميته.
- أقر ابن المقفع منهجاً في التأديب يعتمد على الرواية والنقل.
- وسائل التأديب عند كاتبنا هي: المعرفة والعلم، ورياضة النفس وحملها على ممارسة الفضيلة، والأمر والنهي، والقدوة الحسنة.
- صاغ ابن المقفع مضمونه الأخلاقي في شكل رسائل أدبية.
- يتسم أسلوب ابن المقفع بدقة الألفاظ – ترتيب الأفكار وتفصيل المعاني – يلجأ إلى القوالب والصيغ الأسلوبية الجاهزة التنوع عنده في المعاني – أما الألفاظ فثابتة – يلجأ أحيانا إلى الخيال – يعتمد على الإيجاز في القول– واستخدام الأسلوب المنطقي.

ثبت المصادر والمراجع

١- ابن المقفع – الأدب الصغير والأدب الكبير – دار بيروت للطباعة والنشر – لبنان – ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

٢- ابن النديم – الفهرست – دار المعرفة – ط١ – بيروت – ١٩٦٤م.

٣- ابن منظور – لسان العرب – تحقيق: عبدالله علي الكبير وآخرين – دار المعارف – مصر – ١٩٨٠م.

٤- أبو الفرج الأصفهاني – الأغاني – ج٥ – دار الكتب – مصر – د.ت.

٥- أبو تمام – ديوان بشرح الخطيب التبريزي – تحقيق: محمد عبده عزام – ج١ – دار المعارف – مصر – د.ت.

٦- أرسطو – علم الأخلاق – ترجمة أحمد لطفي السيد – مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة – ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م.

٧- الجاحظ – البيان والتبيين – دار إحياء التراث العربي – بيروت – ١٩٦٨م.

٨- شوقي ضيف – العصر الجاهلي – ط٢٤ – دار المعارف – مصر – ١٩٨٤م.

٩- طه حسين – من حديث الشعر والنثر – دار الكتاب اللبناني – لبنان – ١٩٧٣م.

١٠- عبداللطيف حمزة – ابن المقفع – دار الفكر العربي للطباعة والنشر – ط٣ – مصر – ١٩٦٥م.

١١- عبدالله التطاوي – مستويات الحوار في النثر العباسي – دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع – مصر – د.ت.

١٢- عماد الدين خليل – محاولات جديدة في النقد الإسلامي – مؤسسة

الرسالة – ط١ – بيروت – ١٩٨٩م.

١٣- عمر الدقاق – ملامح النثر العباسي – دار الشرق العربي – بيروت – د.ت.

١٤- فؤاد زكريا – نيتشه – نوابغ الفكر الغربي – ط٣ – دار المعارف – مصر – د.ت.

١٥- محمد زكي العشماوي – قضايا النقد الأدبي – دار المعرفة الجامعية – ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

١٦- محمد كرد علي – رسائل البلغاء – دار الكتب العربية الكبرى – مصطفى الحلبي – مصر – ١٩١٣م.

١٧- مجدي وهبة – معجم مصطلحات العربية في اللغة والأدب – مكتبة لبنان – ط٢ – بيروت – ١٩٨٤م.

١٨- المسعودي – مروج الذهب – ج٣ – طبع دار الرجاء – القاهرة – مصر – د.ت.

١٩- يوهان فك – العربية – دراسات في اللغة واللهجات والأساليب – ترجمة: د. رمضان عبدالتواب – مكتبة الخانجي – مصر – ١٩٨٠م.

الفهرست

تمهيد ٧٢٦
المبحث الأول: ابن المقفع والنزعة الإصلاحية ٧٢٩
أولاً: ما بين الأدب والأخلاق ٧٣٠
الأدب ٧٣٠
الأدب والأخلاق ٧٣٤
ثانياً: ابن المقفع وبزوغ عصر جديد ٧٣٨
الثورة العباسية وتطور الحياة الثقافية ٧٣٨
ابن المقفع رأس الكُتاب المحدثين ٧٤٠
ثالثاً: مفهوم الأدب عند ابن المقفع ٧٤٤
المبحث الثاني: رسائل ابن المقفع بين الفن والقيم الخلقية ٧٤٩
أولاً: تنوع القيم التي تبناها ٧٥٠
الفضائل والرذائل ٧٥٠
بين الطبع والاكتساب ٧٥٤
ثانياً: التأديب (أهميته – منهجه – وسائله) ٧٥٧
أهمية التأديب ٧٥٧
منهج التأديب ووسائله ٧٥٨
ثالثاً: الشكل والأسلوب ٧٦٤
الخاتمة ٧٦٩
ثبت المصادر والمراجع ٧٧١